

الحسّ ودوره في المعرفة عند ابن سينا

د. عطاء الله ازرارقة

قسم علم النفس وعلوم التربية

جامعة الأغواط

في إطار نظرية المعرفة، تلتزم الذات الإنسانية مبدئياً حالتين: الحالة الأولى يمكن إرجاعها إلى الشعور بالذات، الذي بواسطته ثبت وجودنا الذاتي الخاص. أما الحالة الثانية يمكن حصرها في علاقة الذات بالعالم الخارجي. ففي الحالة الأولى يكون فعل الذات غريزي وبسيط، نكتشف من خلاله الوجود الذاتي. أما في الثانية فالذات تعكس الواقع الخارجي عن طريق إدراكها لصور ومفاهيم العالم الخارجي، وبذلك لا تتم العملية المعرفية إلا بهذا الإدراك.

- الشروط الموضوعية للمعرفة الحسية:

إنّ السؤال الذي يمكننا أن نطرحه في هذا السياق هو: هل يعدّ ابن سينا الوظائف الحسية ذات نتائج معرفية؟ أي هل يمكن للعامل الحسي أن يفيد في تحديد الحقيقة الموضوعية للعالم الخارجي؟ وما هي الحدود المعرفية على مستوى الدرجة الحسية المعرفية؟

يحدّد ابن سينا في إطار عام أهمية الحسّ في المعرفة متأثراً بأرسطو، بقوله "إنّ من فقد حسّاً ما فقد يجب أن يفقد علماً ما، أي العلم الذي يحرك النفس إليه ذلك الحسّ فلا يمكنه أن يصل إليه"¹، ومفهوم العلم بالنسبة إلى ابن سينا - يمكن تحديده بالمعرفة - يركز على تصوّر وتصديق، فكل تصوّر هو تصديق وليس العكس².

من هذا المعنى، يؤكّد ابن سينا على الأساس الحسيّ، في بناء نظرية في المعرفة. ويربط بذلك إدراك الكليات بالجزئي المحسوس³، أي احتواء كلّ تصديق لكلّ تصوّر، ولا يمكن عكس ذلك. وعليه يمكن اعتبار الإحساس بالجزئي منذ البداية

القاعدة الأساسية للإدراك العقلي، ويتجلى معنى هذا المفهوم من خلال تبعا لأهمية العامل الحسي في التفكير السينوي. ويتجلى أيضا في إبراز درجة الإحساس بالجزئي حيال الحقيقة الموضوعية للعالم الخارجي. فالحواس طرق تستفيد منها النفس الإنسانية المعارف⁴، والمعارف بهذا المعنى لا تخرج عن نطاق النتائج الحسية لأشكال الإحساس. فالمعرفة الحسية الشكلية واليقينية لا تتعدى كونها "معرفة بالشئ لا عله، وإنما نعلم الشئ بالفكرة والقوة العقلية"⁵، أي الإحساس لا يدرك معنى الشئ خالصا، بل مع العلائق الحسية أي مع صورة المحسوس. وإذا حللنا بنية الإحساس إلى عناصرها الأساسية عند ابن سينا، وجدنا أن للإحساس أهمية بالغة في الاتصال بالعالم الخارجي، وفي الوقوف على ظواهر الأشياء، وبذلك يعتبر الإحساس المظهر الأول لعملية انعكاس الواقع الخارجي في الذات العارفة. يقول ابن سينا في هذا المعنى: "المحسوس الأول هو الذي ارتسم في آلة الحس"⁶. تتحدد العملية المعرفية الحسية إذن، في شكل تأثير وتأثر وتفاعل بين الذات والموضوع. ففي العملية المعرفية الحسية يكون هناك "فعل وانفعال لا محالة"⁷، وبالتفاعل يختلس الحس صورة المحسوس وبواسطته الوظيفة الحسية في قبول صور الأشياء. فالصورة إذن تقوم الأجسام بعد أن تحلّ فيها، والكيفيات تلحق بالجسم الطبيعي من تلازم مادة الجسم وصورته.

بصفة عامة تتمثل كيفيات الأجسام الطبيعية، بكونها مادة للإحساس الخارجي. وبذلك فهي معطى بكيفياتها، "وخارج ذلك المعطى... لا يوجد سوى الفكر وفاعليته"⁸.

ومما يوضح رأي ابن سينا في الكيفيات، نقده لآراء السابقين عليه. ويدلّ ابن سينا في خضمّ ذلك النقد، أنه لو انحصرت مادة الإحساس في الشكل للزم عن ذلك مثلا لمس الشكل وإدراكه بالحدقة. فالشئ يدرك من جهة واحدة، فإن أدرك من جهة

ولم يدرك من جهة، فالذي لم يدرك منه غير الذي أدرك، فيكون اللون غير الشكل، وكذلك الحرارة غير الشكل⁹.

نستنتج ممّا ذهب إليه ابن سينا أنّ الأصوات والطعوم والروائح والحرارة، انفعالات تثيرها حركة الأجسام الخارجية في أعضاء الحسّ. وتحدّد درجة ذلك الانفعال بالقياس إلى درجة فاعلية المؤثر وطبيعة الحركة. وعليه فالخصائص التابعة الخاصّة الامتداد في الأجسام من شكل ومقدار وحركة وسكون هي خصائص ملازمة للجسم. ويرجع ابن سينا تلك الخصائص إلى الصورة الجسمية. ويمكن اعتبار تلك الخصائص بالكيفيات الأولى بالمصطلح الحديث. والخصائص من ألوان وطعوم بالكيفيات الثانية. وهذه الأخيرة تعتبر مبدئياً، موضوع انفعال بين الذات والموضوع¹⁰.

يمكن أن نحمل رأي ابن سينا في مجال الكيفيات المحسوسة بما يلي:

من جهة أولى: أنّ عضو الإحساس يتأثر بخصائص الأشياء.

ومن جهة ثانية: لا يتعد ابن سينا من حيث الشكل والمضمون عن التقسيم الحديث لمسألة الكيفيات، فهناك الكيفيات الأصلية وهناك الكيفيات البسيطة الناتجة عن المركبة، وكيفيات متوسطة ناتجة عنها "كالأغبر بين الأبيض والأسود"¹¹.

ويتعرّض ابن سينا إلى المسافة التي تفصل بين الحاسّ والمحسوس، ويرى أنّ الحيز مشغول يساعد على إتمام المعرفة الحسيّة. ويعدّ هذا الوسط شرطاً أساسياً في تنشيط التفاعل بين الذات والموضوع. فلو جاز للذات أن تستغني عن الوسط لوجب للبصر أن لا يحتاج إلى "الضوء وإلى توسط الشاف" ولكان تقريب المبصر من العين لا يمنع الإبصار، ولا كان سدّ الأذن لا يمنع الصوت، ولكانت الآفة العارضة لهذه الآلات لا تمنع الإحساس¹².

في هذا المعنى يتحدّد موقف ابن سينا، في توافقه مع التفسير الحديث، ودحض نظرية الخلاء "فلو كان خلاء موجوداً لما كان بين الحاسّ والمحسوس، المتباينين موصلاً

البتة، ولم يكن فعل وانفعال البتة" ¹³.

وعلى هذا الأساس تكتمل مبدئيا الشروط الموضوعية لإتمام العملية الحسية في المعرفة. ويتجسد التأثير المتبادل في علاقة الذات والموضوع في حدوده القصوى.

إذن كيف يتجلى ذلك عمليا على مستوى الحواس الخارجية؟

- **الإبصار و نظرية الانعكاس:** إن الذي يكتسبه الفرد من خلال النشاط الحسي الفيزيولوجي، يتحدد من تأثير الوسط الخارجي في أعضاء الحس. وبهذا المعنى فالتصورات المدركة ما هي إلا نتيجة لانعكاس مظاهر العالم الخارجي في العضوية الفيزيولوجية للإنسان. فالانعكاس إذن "يحقق الترابط بين الأجسام الحسية والوسط المحيط، مشكّلا إلى جانب تطوّر الأعضاء الخاصة لإدراك المؤثرات الخارجية، قدرة على الإدراك، وقدرة عدد من الحساسية التي يقود إلى أن يصبح الجسم قادراً على عكس الوسط المحيط" ¹⁴.

إن لنظرية الانعكاس أهمية في تحديد القيمة المعرفية للإنسان، من جهة علاقته بالعالم الخارجي واتصاله المباشر به. ولكي نحدد الأبعاد القصوى التي تأخذها نظرية الانعكاس في تفسير ابن سينا يجب علينا طرح السؤال التالي : كيف تتم عملية الإبصار؟ وكيف تؤدي العين وظيفتها؟ باعتبار أن تلك الوظيفة تعدّ أساسا فاعلا ومتميّزا في علاقة الإنسان بالعالم الخارجي.

لابن سينا تفسيرات نفسية ومعرفية، يمكن أن ندرج إمكانية فهمها ضمن علاقة الذات بالواقع الخارجي. وذلك لأنّه في العملية الحسية يصبح الحسّ الخارجي في حالة شوق فعال لمعرفة الأشياء، واستقبال كیفياتها التي تؤثر في العضو الحاسّ ¹⁵.

ورأي ابن سينا يفيد في بيان الأولوية الوظيفية، التي على أساسها يمكن استقصاء الاتجاه المعرفي الكشف عن الخطّ الذي يتبعه ابن سينا في المجال الطبيعي. ويوضح ذلك من خلال المادّة الحسية التي توافي الحواسّ وترسم فيها. ويرى بأنّ "الشكّ في الحاسة البصرة، هل ينطبع فيها المبصر أم يخرج منها شعاع إلى البصر لكان يجب أن

يكون ما يبصر أكثر من قدره في الحقيقة، لأنّ الشعاع الواقع عليه ينتشر فيه ¹⁶، بمعنى أنّ الواقع الخارجي يؤثّر في حاسة البصر، وليس العكس خروج شعاع من حاسة البصر لكي تتمّ عملية الإبصار.

ويعرّج ابن سينا على الجسم الملوّن، الذي لا تتحقّق إمكانية رؤيته إلا بواسطة الضوء، مطبّقاً في ذلك مبدأي القوّة والفعل. فاللون في الجسم بالقوّة بينما الضوء هو بالفعل. وهذا يعني أنّ مسألة إدراك الألوان لا تتحقّق إلا بعامل الضوء. أي أنّ الألوان ليس لها وجود بالفعل في الظلام، بل تتمتّع بوجود بالقوّة فقط، فإذا ما وقع عليها النور أصبحت مرئية بالفعل. يقول "أعراض تحصل بواسطة المضيء، وسبب كونها مختلفة بعضها أبيض وبعضها أسود وبعضها كذا، هو اختلاف الاستعدادات في المواد ¹⁷". إنّ الذي يمكن أن نستنتجه من تفسير الإبصار عند ابن سينا لا يكمن في التفسير الفيزيولوجي أو التشريحي - وإن كان لابن سينا في هذا المجال رأي بل نظرية مؤسّسة - وإنما المسألة المهمّة في ذلك هو أنّ نظرية الإبصار مخصّصة وموجّهة في تأسيس المنحى العامّ لكلّ نظرية في المعرفة. وتدلّ على ذلك كلّ التفسيرات التي مفادها أنّ الواقع الخارجي، هو بالنسبة إلينا المادّة المعرفية. ويمكن تعميم اتجاه ابن سينا في الإبصار على بقية الحواسّ الأخرى وسوف نقتصر على بعض النماذج.

-السمع والصوت: فيما يتعلق بالسمع، فإنّ موضوعه بالضرورة يحيلنا إلى الصوت وتفسيراته. يحدّد ابن سينا الصوت بأنّه "ليس أمراً قائم الذات موجوداً ثابت الوجود، يجوز ما يجوز في البياض والسواد والشكل من أحكم الثبات... فالصوت بين واضح من أمره، وأنّه ليس يحدث إلا عن قلع أو قرع..." ¹⁸، فالصوت ليس أمراً قائم الذات، بل هو كيفية تحدث نتيجة الاصطدام الخارجي. هذا من حيث الشكل أمّا من حيث الموضوع والكيفية التي يحدث بها،

يتساءل ابن سينا فيما إذا كان الصوت "هو نفس القرع أو القلع، أو هو حركة موجبة تعرض للهواء من ذلك أو شيء ثالث يتولد من ذلك أو يقارنه"¹⁹.

يطرح من خلال هذا النص ثلاثة احتمالات تنقسم إمكانية أو عدم إمكانية حدوث الصوت و إتمام السمع. وينتهي إلى إبطال الاحتمالين الأولين، ويتبنى الثالث ، حيث تتحدد ماهية الصوت من حركة الهواء المتموج. وبالتالي السمع يشبه البصر" تنبئه موجات أو اهتزازات، لكن الموجات الضوئية تختلف عن الموجات الصوتية في كثير من الاعتبارات، فباستطاعة الضوء الانتقال في فراغ. أما الصوت فيتطلب وسطا ماديا، ينتقل فيه. وهذا الوسط هو الهواء عادة..."²⁰

ويمكن أيضا فهم السمع بأنه وسيلة لفهم الزمن في علاقته مع الوجود الخارجي. إن الأصوات تموضع الزمن وتشيئه . وبالتالي تتحدد وظيفة السمع بالتحديد بالتزول بمفهوم الزمن كشكل مجرد وربطه بالعالم المحسوس في علاقته مع الإدراك لوحة صادقة للعالم الخارجي. وعليه فالزمن بدون صوت لا يمكن أن يكون موضوعا للإدراك الحسي. وبالعكس العالم الواقعي المحسوس بدون أصوات لا يمكنه المشاركة المباشرة في الصيرورة الزمنية. وفي هذا المعنى يربط ابن سينا مفهوم السمع بالحركة²¹، وإذا كان البصر حاسة السطح الخارجي والوسط المحيط. فالسمع يتخذ من الأصوات موضوعات له. وفي كلا الحالين ينطبع في الذات العارفة تصور حسيًا متحركًا مطابقًا للواقع الخارجي.

وبناء على ما سبق فالرؤية والسمع يكشفان لنا عن طريق الانطباعات السطح أو الحيز الخارجي والتفاعل الزماني والحركي بالواقع الخارجي. ولكن على الرغم من ذلك ، فالأشياء الخارجية تستلزم حاستين أخريتين، إذ بدونهما تبدو لنا الأشياء مجرد مظهر خارجي، وعن طريقهما نكشف عن مركبات الأشياء ومكوناتها الكيميائية في تفاعلاتها مع الذات العارفة. وهكذا فالشم والذوق يكشفان من وراء السطح تلك المركبات والمكونات الكيميائية "ويشبه أن يكون حال إدراك الروائح

من الناس كمال إدراك أشباح الأشياء"²².

-الذوق والشم: إنّ الذوق والشمّ يوضّحان أكثر الانطباعات الحسيّة ليس أكثر من السمع والرؤية وإنّما انطباع أكثر عمقا، إذ يمكن عن طريق الشمّ والذوق بلوغ كيفيات حسّية أكثر تعقيدا. ويمكن عن طريقهما أيضا تحقيق نوعا من التوغّل في المادّة موضوع الإحساس وصهر للواقع بالذات العارفة، انصهارا أكثر دقة في التفاعل بين الذات والموضوع. وعلى هذا الأساس يغدو المنحى الحسيّ للشمّ والذوق بعيدا في التفسير الموضوعي للعالم الخارجي، ويغدوان منذ البداية نحو تشخيص البنية الداخلية لصور الأشياء المنعكسة في الذات العارفة. في حين تظل الرؤية مقتصرة في عكس المظهر الخارجي ويبقى الصوت في حدود الآلية الانعكاسية للواقع. وعليه تتحدّد وظيفة كلّ منهما في الحدود القصوى لعلاقة الارتباط والانفعال بين الذات والموضوع. في حين نجد أنّ الشمّ والذوق لهما ارتباط وثيق بالجهاز العضوي.

والشمّ يعتبر في حد ذاته موجة هوائية تحقّق الذات بواسطتها تفاعلها مع الكيفيات الكيميائية الخفية في الأشياء. وبذلك فالشمّ يتعلّق بموجات هوائية كيميائية" فالشموم هو البخار ويجوز أن يكون الهواء نفسه، فيستحيل عن ذي الرائحة ، فيصير له رائحة، فيكون حكمه أيضا حكم البخار، فيكون كلّ شيء لطيف الأجزاء أن ينفذ إذا بلغ آلة الشم ولاقاها كان بخارا أو هواء مستحيلا إلى رائحة أحسّ بها"²³، يعني أنّ الشمّ لا يتعلّق باهتزازات مادّية ولكن بتموج جزئي وذرات لطيفة الأجزاء وعليه فالذات تتلقّى العناصر المكوّنة لمادّة الشمّ بالقبول والموافقة بين الحاسّ والمحسوس فتدركها وتحسّ بها بلذّة أو لطف تقرّينا.

والروائح تنتشر كما هو حال الأصوات في الوسط الذي يتخلله. ويحدّد ابن سينا الوسط المساعد على انتقال الروائح بالبخار أو الهواء فكلاهما وسط مساعد لتوصيل المحسوس بالحاسّ، دون أن تتأثّر الكيفيات المشمومة بتلك الوسائط. وهكذا فحاسة

الشمّ تعتبر بالنسبة إلى الإنسان حاسة مميّزة، تدخله مباشرة مع المادّة الخارجية لكشف أبعادها الأساسية.

أمّا الذوق فتحدّد وظيفته بالجمال الداخلي، وخاصّة في مجال عضو الذوق، لأنّ في هذه الحالة الذوق كفيّة تلتقط من طرف عضو الذوق، فالموضوع المحسوس يكون مختلط الكيفيات المذاقية المختفية في المادّة والتي تنتشر في اللسان. وعن طريق المذاقات المختلفة يستطيع الإنسان بلوغ الكيفيات الحيوية الفاعلة في مادّة الإحساس. وعلى الرغم من الغموض الذي يبرز في انطباع المذاقات والصعوبة التي تظهر في التمييز بينها، فإنّ الكيفيات الذوقية تضطّحب باللذّة والألم، فالإحساس باللذّة والألم يصوّر لنا العالم الخارجي على شكل صور مشاهة أو مباينة للذات العارفة ويبرز فاعلية الذات في علاقتها مع العالم الخارجي. فالذوق موضوعياً وذاتياً يمثل حاسة الحياة بكلّ معناها، لأنّه "دالّ على الشيء الذي تستبقى به الحياة من المطعومات"²⁴.

أمّا اللمس يبدو في أنّه الأصل لكلّ الحواسّ الأخرى. ويورده ابن سينا "في الشفاء" في قائمة سلسلة الحواسّ الأخرى. ويرتبه في آخر القائمة في رسالته "مبحث في القوى النفسانية" إلّا أنّه في كلا الحالين يتمتّع بنفس الدرجة. واللمس بالنسبة لابن سينا هو "أولّ الحواسّ ولا بدّ منه لكلّ حيوان أرضي..."²⁵. وتحدّد أهمية اللمس بالتكوين الفيزيولوجي للإنسان الذي يقتضي بالضرورة هذه الحاسة فأولّ ما يميّز به التركيب العضوي قابليته لتلقّي "الكيفيات الملموسة فإنّ مزاجه منها وفساده باختلالها"²⁶، بالإضافة إلى ذلك فاللمس يعدّ بمثابة قناة أساسية وقاعدة مركزية للحواسّ السابقة، ويفيدنا في تمييز جسدنا عن بقية الأجزاء الأخرى. ويمكن أن نستنتج من وظيفة اللمس حالتين :

- تكمن الأولى في أنّ اللمس لا يقتصر على منطقة معيّنة من الجسم وإنّما له

صفة الامتداد

- يحمل اللمس ميزة انفعالية شهوانية وحياتية معرفية لا تتواجد في الحواس الأخرى

وفي كلّ ذلك. تظهر حاجة اللمس كأداة معرفية، وكحاسة في تحصيل الاتزان والاعتدال العضوي بالطبيعة الخارجية، وباللمس تنتهي سلسلة الحواس الخارجية. ولكن يظلّ المنحى الحسّي مفتوحاً، فنحن على أبواب الحسّ الداخلي الذي يرتبط بمعطيات الحسّ الخارجي وبما يخلقه من آثار مكانية وزمانية. وارتباط الحسّ الداخلي بالحسّ الخارجي يبرز على شكل استعادة الصور المحسوسة مرّة ثانية، والعمل في تلك الصور عارية من مادّتها بضروب مختلفة. وإذا تساءلنا سؤالاً تقليدياً، إلى أيّ حدّ يمكن الاعتماد على الحسّ الخارجي في التحصيل المعرفي عند ابن سينا؟. للإجابة على هذا السؤال نجد أنّ أوّل معرفة يحصلها الإنسان تتمّ عبر الحسّ الخارجي، وأوّل انفعال يصادف الإنسان ينبع من مواجهته للعالم الخارجي. وعلى الرغم من ذلك، فإنّنا عن طريق الحسّ لا نعرف سوى الجزئي، وذلك بانطباع صور المحسوسات.

إنّ هذا المستوى من المعرفة يعبر عن درجة دنيا من السلم الأداتي المعرفي، حيث نجد أنّ الحواس الخارجية عاجزة في إمدادنا بقدرات أوسع للتوغل في باطن الأشياء. ولكي نصل إلى لبّ طبيعة الأشياء، يجب الارتقاء إلى درجة أعلى من الفهم والتفكير. ومن ذلك نستنتج أنّ انفعال الحسّ الخارجي يبقى مفعوله في الأعصاب الحسّية، ليشكّل في النهاية مادّة لعمل الحواسّ الداخلية. حيث تبدأ معرفة المفاهيم الكلية من خلال عمل الخيال، والمتوهّمة، والذاكرة، والحافظة، والحسّ المشترك... إلخ. كما تبدأ عملية التجريد وفق منطق، الجمع والتمييز، والتحليل والتركيب، إدراك المعاني الجزئية، حفظ واستعادة الصور... وربما تكون هناك فرصة أخرى لتوضيح ذلك.

- الإحالات والهوامش :

- ¹ - ابن سينا، الشفاء، المنطق ج3، قسم البرهان، تحقيق أبو العلا عفيفي، مراجعة د/ إبراهيم مذكور، القاهرة 1956 ص22
- ² - إبراهيم مذكور، مقدمة الشفاء، المنطق ج1، ص55
- ³ - ابن سينا التعليقات، تقديم وتحقيق عبدالرحمان بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973 ص22
- ⁴ - المصدر نفسه ص23
- ⁵ - ابن سينا، التعليقات ص79
- ⁶ - ابن سينا، الشفاء، الفن الأول، المقالة1، تحقيق سعيد زايد، إبراهيم مذكور، 1405هـ- ص34
- ⁷ - ابن سينا، النجاة، قسم الطبيعيات، ص66
- ⁸ - Louis Lavelle la dialectique Du monde sensible 2ed Paris 1953 p50
- ⁹ - ابن سينا، الشفاء، الفن السادس، ت: بان باكوش، مطبعة المجمع العلمي التشيكوسلوفاكي، 1956 ص164
- ¹⁰ - المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدّم، 1986 ص389
- ¹¹ - ابن سينا، مبحث في القوى النفسانية، ضبط وتصحيح أدوار ابن كريثليوس مطبعة المعارف القاهرة 1963، ص43
- ¹² - ابن سينا، الشفاء، الفن السادس ص66
- ¹³ - ابن سينا، الشفاء، الفن السادس ص66
- ¹⁴ - ف. ك. ز. أروود جييف، المنطق الديالكتيكي، ترجمة د/ أحمد برقاي دمشقي، 1983، ص62-
- ¹⁵ - Jacques Mataine Les degrés du savoir 5ed Paris 1946 p 225-
- ¹⁶ - ابن سينا، التعليقات، ص69
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص47
- ¹⁸ - ابن سينا، الشفاء، الفن السادس ص82
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص83
- ²⁰ - ركس نايت، المدخل إلى علم النفس ترجمة عبد العالي الجسماني، ط1، بغداد 1980- ص135-
- ²¹ - الشفاء، الفن السادس ص84
- ²² - المصدر نفسه ص78
- ²³ - المصدر نفسه ص80
- ²⁴ - المصدر نفسه ص68
- ²⁵ - المصدر نفسه ص68
- ²⁶ - المصدر نفسه ص68